

الدرس النحوي في بغداد

إعداد : د. حيدر غضبان محسن الجبوري

كلية الآداب / جامعة بابل

قسم اللغة العربية

س/ متى دخل النحاة إلى بغداد ؟

ج/ كانت بغداد في نشأتها مهتمة بالملك وتدعيمه ، ولم يكن لها اهتمام بالدراسة النحوية ، غير أن الكوفيين كانوا أسبق إلى بغداد عاصمة الخلافة من البصريين لمكان الكوفة منها من الوجهتين السياسية والجغرافية ، وكان علماءها أسبق اتصالا هنا بقصور الخلفاء والأمراء ، وكان الكسائي اول من دخل بغداد من النحاة ، فقد كان ملازما للرشيد حتى مات في سنة ١٨٩هـ ، وهكذا استطاع لكسائي أن يمكن النحو الكوفي في بغداد .

وبعد الكسائي رحل إلى بغداد الفراء حيث عهد إليه الخليفة المأمون بتأديب ولديه ، وقد نال حضوة عظيمة عندهما .

ثم قطن بغداد ثعلب الذي تزعم الدرس النحوي في بغداد حتى دخول المبرد إلى بغداد .

س/ متى التقى المذهبان في بغداد ؟

ج/ على الرغم من أن الكوفيين استحوذوا على الدرس النحوي في بغداد منذ نشوئه ، إلا أن البصريين حاولوا نزع زعامة الدرس النحوي في بغداد من الكوفيين ، وتعود أولى المحاولات محاولة سيويوه السالفة الذكر عندما التقى بالكسائي في بغداد ومناظرته للكسائي فيما يعرف بالمسألة الزنبورية ، ومن ثم محاولة الخفش الذي حاول الانتصار لسيويوه من الكوفيين فذهب إلى بغداد لمناظرة الكسائي إلا أن الكسائي الحاذق عرف كيف يسترضي الأخفش ويضمه إلى جانبه بجعله مؤدبا لأولاده .

الملاحظ على المحاولتين البصريتين السابقتين أنهما باءتا بالفشل ، وأن زعامة التدريس النحوي ظلت للكوفيين . إلى أن دخل المبرد إلى بغداد بعد وفاة المتوكل في ام ٢٤٧هـ ، وناظر الكوفيين في جامع بغداد الكبير ، فقد سحب الأخير البساط من الكوفيين وصار الدرس النحوي بصري النزعة بعدما كان كوفيا .

إن التقاء المبرد بثعلب وتلامذته مرحلة يشير المترجمون إلى أنها بداية التقاء المذهبين في بغداد، ونشوء الصراع بين البصريين بزعامة المبرد والكوفيين بزعامة ثعلب . وصار لكل من الفريقين

مؤيدون ، ويعرض كل واحد علمه ويقيم حججه وبراهينه على نقض حجج الآخر وتقنيده براهينه ، حتى أصبحت جذوة المنافسة مشتتة ، فكثرت المناظرات وتعددت المفاخرات .

س/ متى يؤرخ للمدرسة البغدادية ؟

ج/ بعد اشتداد النزاع بين البصريين والكوفيين في بغداد صارت الرغبة إلى تخفيف ذلك النزاع ، ولاسيما عند الخلفاء والزعماء الذين برزت لديهم الرغبة الأكيدة لذلك لنبت هذه الأفكار العدائية وهذه الروح الهدامة لدى العلماء وآثرو الاعتماد في مسائل النحو واللغة على أصلح الآراء في منهج كلتا المدرستين . وبرز علماء يمزجون بين المذهبين وذلك في منتصف القرن الثالث الهجري ، وبعد وفاة الشيخين المبرد (ت ٢٨٥هـ) وثعلب (ت ٢٩١هـ) ، أي في أواخر القرن الثالث الهجري وبداية القرن الرابع الهجري لاقى هذا النهج التوفيقى استحسان جماعة من النحويين .

أهم الشخصيات النحوية البغدادية :

أبو موسى الحامض (ت ٣٠٥هـ) ، والأخفش الصغير (ت ٣١٥هـ) ، وأبو إسحاق الزجاج (ت ٣١٠هـ) أو (ت ٣١٦هـ) ، وأبو بكر محمد بن سهل السراج (ت ٣١٦هـ) ، وأبو بكر محمد بن القاسم الأنباري (ت ٣٢٧هـ) ، وأبو القاسم عبد الرحمن الزجاجي نسبة إلى أستاذه الزجاج (ت ٣٣٧هـ) ، وابن قتيبة الدينوري (ت ٣٧٠هـ) ، وأبو علي الفارسي (ت ٣٧٧هـ) ، وابن جني (ت ٣٩٢هـ) ، والزمخشري (ت ٥١٨هـ) ، وابن الشجري (ت ٥٤٢هـ) ، وأبو البقاء العكبري (ت ٦١٦هـ) ، وابن يعش (ت ٦٤٣هـ) ، ورضي الدين الاستربادي (ت ٦٨٦هـ) وغيرهم .

خصائص المذهب البغدادي :

١. السماع:

مما يذكر من مظاهر هذا العصر فشو اللحن لكثرة الجواري والنساء الأعمميات وغلبة الديلم والأتراك ، وبدأ اللحن يتجاوز الحواضر إلى البادية ومواطن الفصاحة حتى اختلت الألسنة.

على أن هذا العصر لم يعدم فصيحاً كما ذكر ابن جني نفسه ففج ذكر ان أعرابيا كان يحضره وهو من الفصحاء هو أبو عبد الله العساف التميمي الذي كرر اسمه في مواضع كثيرة من كتبه ولاسيما الخصائص .

ولم يتشدد البغداديون في الأخذ عن العرب كالبصريين ، وإنما احتجوا بكل اللغات كما هو حال الكوفيين ولم يفاضلوا بين اللغات ، فالزجاجي (ت ٣٣٧هـ) يجيز لغات العرب مهما تنوعت ولا يقبل أن بصفها بالشذوذ وإن خالفت قياس البصريين ، وهذا ابن جني يقول في الخصائص : " اللغات على اختلافها كلها حجة " . بل إن البغداديين أخذوا عن الأعراب الذي توطنوا في الحاضرة . وقد ذهب

الزمخشري من البغداديين المتأخرين أبعد من ذلك ، فكان يرى جواز الاحتجاج بكلام أئمة اللغة وكبار رواتها جاعلا ما يقولونه بمنزلة ما يروونه .

وقد وقف البغداديون من الاستشهاد بالقراءات الشاذة موقفا وسطا بين البصريين الذين رفضوا الاستشهاد بها والكوفيين الذين لم يرفضوها . فكان البغداديون يقبلون القراءات الشاذة إذا دعمتها الرواية وقام عليها الدليل إما إذا أعوزها الدليل فيرفضونها .

أما الحديث النبوي الشريف فقد استشهدوا به في مواطن كثيرة بخلاف البصريين والكوفيين الذين قللوا الاستشهاد به .

أما الشعر فقد استشهدوا بأشعار المولدين من الطبقة الرابعة يقال لها المحدثون كبشار وأبي نواس ، ولم يستشهد البصريون ولا الكوفيون بشعر المولدين عدا الفراء الذي خرج على مذهب أصحابه وتبعه البغداديون على ذلك .

٢. القياس :

كان البصريون يبنون قواعدهم على الأعم الأغلب من كلام العرب ولا يقيسون على المثال الواحد أو الأمثلة النادرة، أما الكوفيون فكانوا يقيسون على المثال الواحد أو الأمثلة النادرة .

وقد وقف البغداديون موقفا وسطا بين المذهبين في القياس ، فحاسوا على الشاذ بعد مناقشة له فإن أثبت النقاش قبوله قبلوه وإلا رفضوه .

مما تفرد به البغداديون من آراء :

كان للبغداديين آراء نحوية تابعوا فيها البصريين مرة ، وآراء أخرى تابعوا فيها الكوفيين مرة أخرى . ومع هذا كانت لهم آراء تفردوا بها ، من تلك الآراء :

١. "وزعم البغداديون أن "كلتا" قد نطق لها بمفرد في قول الراجز :

في كلت رجليها سلامى واحده كلتاها مقرونة بزائده.

وليس بصحيح، بل أراد "في كلتا" فحذف الألف للضرورة" .

٢. مذهب جمهور النحويين أن الحال لا تكون إلا نكرة وأن ما ورد منها معرفا لفظا فهو منكر معنى

كقولهم : جاؤوا الجَمَاءَ الغَفِيرَ أي جَمِيعًا .

